

حلاق للموتى

تحت إشراف
حلاق للموتى
قصص
1996
1996



كان ذلك منذ زمن بعيد يا
سيدي..
حين شيلت نفسي، قادمًا
إلى شوارع المدينة، محاولاً أن
ألمم عقارب الزمن الذي دفتته
في أرضي السقي بساتن...
صفتني الوجوه، السقي غطيت
أصافها بالقبعات، وياقات
المعاطف الطويلة... وجوه
كأرض ما مرّها محسرات...
وجوه كسطح مستقع قنار
جلده الصقيع.

حلاق للموتى

مجموعة قصصية

قراءة ممتعة

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية
Syrian Story

ملاقاة الموتى

عزف منفرد بمثابة التقديم:

من يفترس الحمل الجائع

غير الذئب ... الشبعان؟

ارتاح الرب الخالق في اليوم السابع

لكن ... لم يسترح الإنسان

كان ذلك منذ زمن بعيد ...
سدي
حين شئت نفسي، فدمت
إلى شوارع المدينة، محملاً إلى
الكلب عقابتي الزمن الذي غفرت
أرأسي السيل "أمل دنقل"
صغيت الوجوه التي
اصفها، شععات، ووقعت
تعدت الخويلة، وحناء
كأجر ما مرها حمرات
وجوه كسطح مستنقع في
جده الصقيع



كان ذلك منذ زمن بعيد... حين شققت عباب العجاجة قادمة من مزق عباءة العشيرة،
وفي المدينة التي رقصت بين عيني وعند الأفق، تعودت أن أكره أكياس الرمل المكدسة
فوق الأبنية العالية، والأحذية الضخمة السوداء، ذات العنق، التي تستر خلفها...
والصعود إلى الميكرو باصات ذات السقوف الواطئة، لأنني لا أحني رأسي، فأنا
طويل... طويل جداً يا سيدي.

تعودت أن أمشي والحلم الذي رافقني في كل الليالي المظلمة، وحيدين عبر الشارع
الطويل، المعتم... لا قمر... لا نجوم... لا غمام، سوى أعمدة الكهرباء المصطفة على
جانبي الطريق... تتدلى منها جنث تنوس حين تداعبها الريح، جنث لم أتبين وجوهها،
لكنني كنت أحس بسكاكين تنغرز في ظهري وأنا أسير.
أنا أبو زكي...

الذي رافقته السحب، ولحظة الولادة من القرية حتى أسوار المدينة الموشاة بسراويل
زاهية الألوان... "ليس لها دكك"
هذا الذي أمامك يا سيدي، هو أنا أبو زكي الذي رأيت نفسي لحظة الولادة -طبعاً
أستطيع أن أحمّن أنك لم تر نفسك كيف ولدت- أما أنا فقد رأيت نفسي، لم أكن
أصرخ.. وكأني ولدت بلا فم...

كان الليل يمتطي قرينتنا... وبضع نسوة التففن حولي.. كن جميلات، جميلات جداً، لكن
ارتدين السواد.. إلا واحدة... عجوزاً شمطاء كانت، لا أسنان لها، شعرها الأبيض
الطويل ينسدل على كتفيها النحيلتين..

وشعرت في اللحظة التي اقتربت مني، لتقبلي، بالاشمئزاز والتقزز... ولم أستطع أن
أعبر عن شعوري هذا، إلا بالتبول على ثيابها السود... عندئذ رمت بي إلى أقرب امرأة
لها... وأدارت وجهي صوب المقبرة، مقبرة القرية-ولعنتني ولعنت تلك الساعة... وفي
تلك الساعة ماتت أمي، فلم تحد عيناها عن المقبرة رغم الظلمة، وستار المطر المنهمر
بشدة... ومن يومها واللعنة تلاحقني، كلما هز الكلب ذنبه.

-2-

- لا تسافر، فدمعة واحدة تسكبها عينك ستلهب أملاحها جراحك.. قال حمدوش العلوي.

قلت: وإن بقيت، ستظل تحرقني أملاح أرضي التي بارت، تفسخ جلدي كسيجارة ملقاة على قارعة الطريق، أكلتها النار فحولتها إلى رماد حرشفي الملمس.

- أقسم لك يا حمود، لن تجد هناك رؤوساً كالتي هنا.. ابق، ولا بأس إن عاش مقص الحلاقة -الذي تحمله- على المواسم...
لكن لا تسافر.... اسأل من جرب ولا تسأل طبيباً...

-3-

- ليتني أعبر مسامتك، وتحت الجلد أستقر.
- آه... يا مريم.
- حمود. "لا تسافر، وحشة عيونك مثل طير غريب بليله... حابر"¹
كان ذلك منذ زمن بعيد يا سيدي..
وحين شلت نفسي، قادماً إلى شوارع المدينة، محاولاً أن ألمم عقارب الزمن الذي دفنته في أرضي التي بارت... صفعتني الوجوه، التي غطيت أنصافها بالقبعات، وياقات المعاطف الطويلة... وجوه كأرض ما مرّها محراث... وجوه كسطح مستنقع قدر جمده الصقيع.
آه يا مريم...

.. يا رائحة الأرض، الأرض المهللة لقدم الشتاء الذي طال انتظاره... هو ذا القحط يسيجني ثانية... فلا أجد لنفسي ضربة مقص أو موطن قدم. هو ذا القحط بلون الثلج... بلون ملح أرضي التي بارت... الجدران بيضاء... السرير أبيض... الأغصان، الطاولة، الكراسي، إبريق الماء، الباب، الشباك، أبيض كل شيء هنا أبيض... أبيض، إلّا في ثيابي السود، وحقيبة عدة الحلاقة سوداء هي الأخرى، أما العالم الذي يحتويني وهذه الأشياء، فمتر... متران بين الجدار والآخر المقابل لا أكثر.. أو... أقل بقليل. متر..

¹ من أغنية عراقية

كم أنا مشتاق لأن أهرج هذا العالم، وهذا البياض، وأعود إلى حيث الجسر العتيق الملمع بالظلمة... وهو يحني ظهره فوق الفرات... يحتضنه كأم تحتضن رضيعها، وأعانقه... أبكي على صدره مثلما كنت أبكي فوق صدر مريم... ثم أترك دموعي المالحة ترفد النهر لتغير طعم مائه، وأحمل عدتي... أركب حماري قاصداً القرى... وهناك سأستمع إلى الأطفال وهم يرددون أغانيهم، التي لم أسمعها هنا في المدينة... أبداً...

مطر... مطر عاصي

الله يطول شعر راسي...

راسي بالمدينة يأكل

حبة وتينة....

مطر.... مطر عاصي....¹

ويتراكون حولي وخلفي، يمسكون بذيل الحمار أحياناً... ويغنون، يملؤون الدنيا صياحاً... أنهرهم، يبتعدون قليلاً... ثم يعاودون الركض خلفي والغناء.

- عمو أبو زكي، بتقص لي شعري، وبعطيك أربع بيضات؟

- روح نظفه أولاً....

آه... ها أنا أموت في هذا القبر عدة مرات في كل ثانية، فالصمت قاتل هنا إلى حد الجنون. كان صديقي.. لكن بدأ يضايقتني بصمته.. فلم أعد أطيعه، حتى هذه الحنفية التي "تنقط" بهدوء صاخب عند ارتطام قطرات الماء بالمغسلة، لم تعد تؤثر فيه، فأصبح لصوتها لون باهت ككل فجر يطل على هذي المدينة. الأموات بدأوا يضجرون في علبهم منه "وفتح الميت الجالس أمام أبي زكي عينيه الجامدتين". اسمع أنت... أعرف أنك ضجر ليس من الصمت بل من مقصي الذي لم يعجبك.. فرأسك تعودت أن تطلق بألة حديثة مما تصنعه اليابان وتحتويه صالونات الحلاقة في مدننا..

¹ أغنية شعبية فراتية

اسمع، قل لليابانك تلك الخارجة من هيروشيما... قل لها إنها أحرقت الشعر فوق رؤوسنا.. رؤوسنا التي آلت مرايا... عرايا.

قل لها ثمة رجل عجوز-يدعى أبا زكي- هجر قريته، وترك مهنته، وصار حارساً لمقبرة الموتى في إحدى المستشفيات بفضل صناعاتك.

ثم طقق أبو زكي مقصه في الهواء عدة مرات، وضعه جانباً، تناول آلة الحلاقة الكهربائية، وراح يقص شعر رأس الميت الجالس أمامه...

لكن في اليوم التالي، حين تمطى الصبح ببلاد، كشرطي تافه... قالوا:

- نحرق هذا الرجل، وبقايا أفكار ولدت في اليوم الثامن لما كان التكوين. فعيناه تذكر بالزمن الأول.. مآفون يدعوننا أن ننقوع داخل صدفة يرميها التاريخ فوق مزابله.. هي ذي اليابان صديقة ترفع التعب عنا، وتعطينا آخر ما صنعه الإنسان خلف البحر... وكذلك أمريكا... ومجرم يغوى التعب ويدعوننا بالعودة إليه. فلينف إلى أرض لا ينام فيها إلا واقفاً... وكان...

والليلة... ها أنت الليلة تشرب كأسك والمدينة سوداء. الليلة تحتفل بولداتك الجديدة، والسواد يغطي كل شيء، يبدأ بالرؤوس ثم يطول حتى يغطي الأجساد التي لم تعد تستطيع السير فوق طرق غطاها الشعر الأسود الكثيف. الليلة ترقص فرحاً في مدينة لم تعد مدينة، أو في مدينة هي كتلة سوداء من الشعر الكثيف، الذي لا يخترقه ضوء... ولا حتى الشمس.

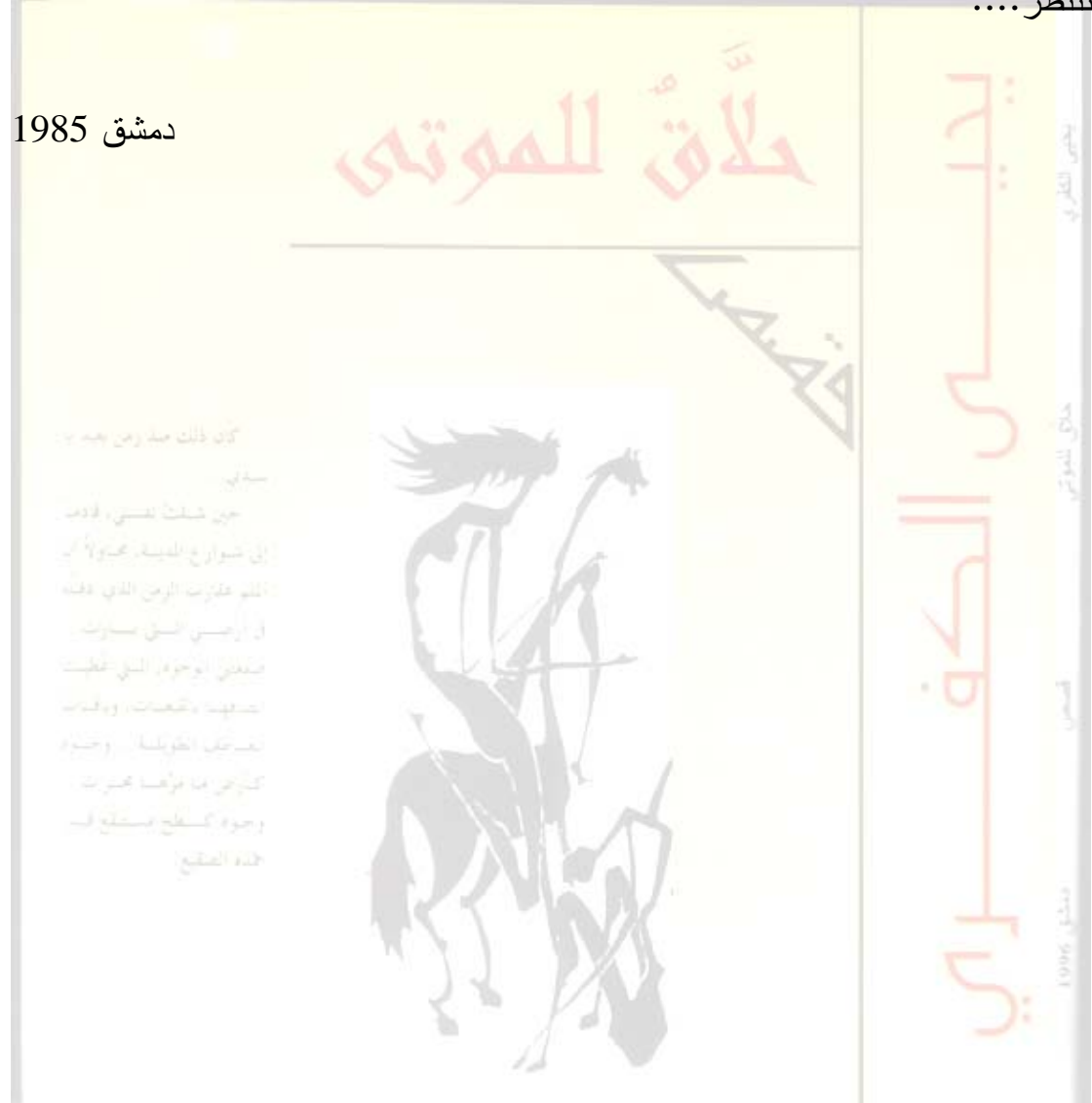
ارقص يا حمود وغنّ، فأنت تملك الألم الذي يدفعك للغناء، في زنانة أوسع مما كتب لها السجان أن تكون. أولئك هم موتاك قد خرجوا من عليهم، رافضين العودة إليها، إلا حين تعود لتروي لكل منهم في كل ليلة حكاياك عن مريم، وحمدوش العلو والعشيرة. أولئك هم موتاك قد أغلقوا باب القبر الكبير، ومنعوا الجدد من الموتى من العبور إليه، ثم قالوا:

- أبقوا موتاكم خارج عالمننا، لتتفسخ جثثهم وتقتلكم روائحها، فها نحن نغلق باب عالمننا، ونعلن نحن الموتى، أننا لن نخرج أبداً حتى يوم الحشر، وفيه سنقف أمام موتاكم بباب الجنة ومنعهم من دخولها.

اضطربت المدينة وتموجت موجات سوداء من الشعر الأسود الكثيف... ازداد الاضطراب مشكلاً إيقاعاً صاحباً، ينسجم مع رقصك الذي بدأ الليلة.

ارقص يا حمود.. فما هي المدينة تختنق بعد أن رمتك ككلب نجس، قتله الجوع في إحدى زواياها.. ها هي المدينة تعود إليك بعد أن رمتك واختنقت بالشعر الأسود الطويل. ارقص.. فمن جديد ستحدث موتاك واحداً واحداً في كل ليلة عن سواتر الرمل فوق الأبنية، والأحذية الضخمة السوداء المستترة خلفها، والسقوف الواطئة، عن الوجوه المتجمدة كمستتعات قدرة، عن حمدوش العلو الذي قتلته أرضه البائر، ومريم ما زالت

تنتظر....



سعدان الشيخ بصراوي وهو اجس الشيخ

-1-

قبل أن تنزل من سيارتك المرسيديس السوداء رأيتك ورأيتهما، رجلان طويلان ترجلا قبلك، مسحا المكان بنظراتهما الذئبية، ثم اتجه أحدهما إلى الباب الخلفي، وفتحه لك كي

تهبط...

فهبطت...

لففت عباةتك حول جسمك، فالطقس بارد هنا كالموت، ونحو مكتبك اتجهت، يسير بمحاذاتك الرجلان اللذان هبطا قبلك.

-2-

في مكتبك الدافئ....

واجهتك صورتك المزينة بأوسمة قديمة، كانت قد علقت على صدرك قبل خمسين سنة، حدجتها بنظراتك مدة طويلة ككل صباح، لكن في هذا الصباح، أحسست في داخلك شيئاً ما يتحرك للمرة الأولى، فالتفت ورائك، خمسون سنة مضت، تقاطرت تجر بعضها بعضاً، وتجرها كقطار شاخ و"....." عليه الزمن.

- ياه يا بصراوي. قد تأخروا كثيراً... كثيراً.

حدثت نفسك.

طُرق بهدوء باب مكتبك، وبهدوء أُدخلت القهوة ككل صباح أيضاً. لكنها لم تقطع حديثك مع نفسك... بالعكس... ذكرتك بالقهوة التي كنت تشربها، أو وأنت تسكر مع الضباط الفرنسيين في ظل جثث الذين أسقطتهم في أيدي قوات الاحتلال أسرى.

- أربعون سنة مذر حلوا... وفي العودة تأخروا كثيراً... كثيراً يا بصراوي.

قالوا لك:

- لك الأرض وما عليها، وأنت لنا، فافعل ما شئت يا بصراوي، أنت هنا الشيخ، فرحت.... ورحت تجوب السهول والجبال، ككلب تبحث عن فرائسك، وحين

أربعون سنة مضت مذ رحلوا، أو مذ بكيت لأول مرة لرحيلهم، بكيت كما النساء، ومنذ ذلك اليوم، لم يغمض لعينيك جفن، وأنت تنتظر عودتهم التي وعدوك بها سراً. وفي الفراش يزداد بكاؤك ليلاً، لأنك تعرف أنه سيأتي يوم تنفق فيه، دون أن تترك وراءك رجلاً يحمل أوسمتك حين يجيئون.

-3-

تمد يدك إلى جريدة الصباح، تنزلق نظراتك، تتقرى العناوين، ثم لا تلبث أن توقفها عن الانزلاق حين تصطم بخبر ينتصف الصفحة الأخيرة، كان صغيراً بسيطاً.

"تيس في البوكمال يهلب"

لم تصدق، أعدت قراءة الخبر. "ومن مزاياه أنه يعالج العقم".

ولم تصدق، لكن بعد لحظات قلت لنفسك:

- ربما يكون ذلك صحيحاً، فزمن المعجزات لم ينته، جاءك الفرج يا بصراوي،

فما بعد الانتظار سوى الفرج.

تلفت لزوجتك.. وفي الليل، كنت وإياها في جوف سيارة المرسيديس السوداء تغادران المدينة إلى البوكمال سراً.

-4-

كانت الطريق إلى البوكمال طويلة، وزادها الليل والمطر طويلاً ومشقة.. في داخلك، كنت تلعن المطر، وهو يتساقط على زجاج السيارة، يرسم خطوطاً تزيلها الريح وقطرات جديدة تسقط لتمتد وتمتد... وتمتد لتزول هي الأخرى، سراً تلعن المطر، مثل خروجك من المدينة سراً... تشغل ماسحات الزجاج، ومن الداخل تمد يدك لتمسح البلور، تدعس دواسة السرعة، وتستغفر ربك بصوت مرتفع تسمعه زوجتك الجالسة إلى جانبك...

وما بين سرك وعلنك بحار جفت المياه فيها، فتشقت قيعانها. ما بين سرك وعلنك... صحارى ماجت رمالها الملتهبة، صحارى ليس فيها إلا جثث فسختها حرارة الشمس والزمن، جثث أنزلتها من المشانق بعد أن سكرت تحتها وتقيأت، أكوام من جثث باردة وأوسمة على صدرك بدأت تصدأ.
الطريق إلى البوكمال طويلة جداً...

وبينك وبين "التيس" حلمت بطفل، انتصب عالياً... عالياً، أعطيته رجولتك ليحمل أوسمتك من بعدك، لكن بدا كمشجب قديم تافه.
تنهادى السيارة على الطريق، والمسافة التي أطالها الليل والمطر ومنزلاقات الطريق ما فتئت تتقلص.

مع الفجر كنت وزوجتك هناك، وعندما نزلت من سيارة المرسيديس السوداء، استطلت كمارد أفلت من قمقمه، تنبعث منك رائحة الموت والعفونة، رغم كل العطورات الفرنسية التي دلقتها على جسدك قبل أن تجيء، فانفتحت لك الطريق إلى ضرع "التيس" وهناك قالوا:

- من أراد طفلاً ذكراً فلينبطح تحت التيس، ويشرب من ضرعه.
 - لكن أنا الشيخ بصراوي... قلت
 - هي مشيئة التيس، وأنت تعلم يا شيخ: التيس... تيس.
 - ليرفع إلى الأعلى.
 - لا يمكن يا شيخ... سنأتي بنت.
 -
- وانبطحت ترضع مثل جرو.

عندما عدت إلى المدينة من البوكمال كان المطر قد توقف عن الهطول، لكن السماء ما زالت ملبدة بالغيوم السود، والشوارع قد أفرغت تماماً ليمر موكبك، فكثير من الناس لاندوا ببيوتهم أو بالسيارات التي انحسرت فيها كالحشرات، وبعضهم لطفى مسماً بجدران وسور المدينة، وتأخر موكبكم يا شيخ كثيراً ونحن ننتظر... انتظرنا ساعة أو يزيد، لم نكن نسمع أثناءها سوى زعيق الدراجات النارية، كان قادماً من بعيد، كذلك

صمت و عيون تحدج الطريق علك تمر...، وحين قال رجالك المنتشرون في الطرقات:

- اخفضوا رؤوسكم فالشيخ... سيمر.

أخفضناها.. وانحنينا... أخفضناها حتى سقطت بين أقدامنا، وحين مررت بسيارتك السوداء، سرقت نظرة تجاهها، فلم أرَ أحداً بداخلها، فقد كان بلورها أسود هو الآخر. وبعد أن مررت سرت الحركة في الطرقات، وعلا الضجيج في المدينة... سيارات وباعة ووقع أحذية... وبدأ العرق الناضح من الأجساد يتلاشى، كما الصمت الذي تحول إلى نحنات تزيل الوسخ المتجمع في الصدر.

-6-

تسد باب المؤسسة الاستهلاكية كتلة من البشر، تتداخل أجسادهم، أيديهم مرتفعة كلوحة خربشها فنان تشكيلي ليعبر عن قوة الجماهير.

من بين هذه الكتلة برز وجه لوحته شمس الجزيرة، وجه لامرأة حانية الظهر، قالت:

- العمى، شوي، شوي، كلكم ستحصلون على ما تريدون، فقط انتظروا، حتى

يجيء مولود الشيخ بصراوي ويفرح الشيخ، أنا متأكدة أنه سيزداد السكر والرز والشاي والمازوت و....

- ومن قال لك إن الذي سيجيء ولد...

قاطعها صوت نسائي مرتجف. التفتت المرأة العجوز ناحية صاحبة الصوت، كانت عجوزاً أخرى، اقتربت من أذن الأولى وهمست:

- إن لزوجة الشيخ بصراوي ردفين كبيرين، وهذا دليل يا حبيبتى على أنها حامل

ببنت، وإذا لم يكن كذلك ابصقي على شيبتي.

وأخرجت من تحت عصابة رأسها بضع شعرات بيض.

- لا يا ستي، الطبيب الخاص للشيخ هو ابن خالة أبي، قال لنا إن الأطباء أجمعوا

في تشخيصهم على أن الجنين ذكر.

استل رجل عجوز نفسه من الكتلة البشرية، وأشار على المرأتين أن تفسحا له الطريق،
ودمدم:

- الكلاب لا تتجب إلا كلاباً

ودبّ باتجاه بيته، يتبعه خيط أبيض من السكر وظل ليس له.
بعد تسعة أشهر، كانت غرفة العمليات تعج بالأطباء، والممرضين والممرضات،
وأكياس الدم من زمرة السلبي، والمشارط والشاش المعقم والقطن والدم المنداح على
أرض الغرفة. وكنت في مكتبك تستفسر عبر الهاتف عن المرحلة التي وصل إليها
المولدون. قال لك الذي على الطرف الآخر من الهاتف:
- مبروك يا شيخ...
فتأوهت السماء من رصاص رجالك، وانحدر الناس كتلة صغيرة ما لبثت أن كبرت مثل
كرة الثلج المنحدرة من قمة جبل. قال بعضهم:
- لا بد أن الشيخ سيزف لنا الفرحة بنهاية الحرب.
رد بعضهم الآخر:

- وبذلك يكون هذا أول حزيان لنا.

طلت من النافذة. ابتسمت، وكان الهاتف لا يزال يصلك بالطرف الثاني:

- ذكر أم أنتي؟

سألت.

- ذكر.... لكن قرد.

سقطت سماعة الهاتف...

سقطت الابتسامة... والأوسمة كذلك... سقطت بلا رنين. خرجت للناس... قلت:

- انتصرنا.

- على من؟

جاءك السؤال،

بحثت في جمجتك عن جواب... طال البحث... أخيراً قلت:

- على مجموعة من الكفرة، خرجت عن سور المدينة ليلاً، تركب الحمير

بالمقلوب وتحمل قناديل، تبحث عنه "جل جلاله".

أشرت بيدك... صمت الرصاص... دخلت تجر خلفك ذيل عباءتك التي لفتتها حول
جسمك.

بعد ساعات وجد تيس البوكمال مقتولاً برصاصة في ضرعه.

-8-

- عجيب أمر جيل هذا الزمان يا شيخ
- أملت رأسك قليلاً، أغضت عيناً، وفتحت الأخرى تجاه القفص الحديدي.
- ما به؟ قلت.

يقول إن الإنسان أصله قرد.

- أعوذ بالله.

انتفضت.. ارتعش الجميع.. واستنكر القرد في قفصه.

- أقسم لو أمسكت بواحد منهم لقطع لسانه.

- نعم يا شيخ... لكن الحق على داروين الذي علمهم ذلك.

- من؟

- داروين.

- ومن أي عشيرة ابن الكلب هذا؟

- لا يا شيخ ليس عربياً... إنه إنكليزي.

- لا؟....

- إبي بالله...

صمت، حككت رأسك، أردفت:

- يجوز....

مددت يدك إلى ذقنك، هرستها هي الأخرى...

دارت عيناك في محجريهما دورات قليلات، بينما وسعت ابتسامة صفراء، حين راح السعدان يقفز.... يرقص ويضرب قفصه الحديدي بمواجهتك، كطفل رأى أباه...

ابتسم الرجل الصغير الذي يقف بمحاذاتك.... همس:

- شيخ... يبدو أن السعدان أحبك... هه... هه

امتعضت... ابتلع الرجل الصغير ابتسامته... وابتلغته، فغاب كما غاب الذين ولدوا طفلك.. عفواً؟... سعدانك، الذين قيل عنهم.... إن الجن قد اختطفهم إلى أقبية عطنة، كرائحتك.

1986

الحسين بن علي يبعث في بغداد من جديد

-1-

الحسين بن علي يعود إلى ما قبل الهجرة

- متى تعود...؟

- لا أدري... لكنني قريباً أعود...

- سيقتلني انتظارك...

-

... حين تركت يديها شعرت بانقطاع الحرارة التي تسربت إلى جسدك خلالهما... ونفاذ قشعريرة البرد تتغلغل كالسرطان في كيانك... وانسلت بين حارات "الرميلة"... تلتهمك الظلمة..

ومريم لا زالت تقف في باب البيت تشيعك بنظرها... وعمود سقف الغرفة، الذي رآته في الحلم -ليلة أمس- يتكسر بشدة، ما برح يأكل دماغها... فيتولد انقباض يدق أوتاد خيمته في صدرها... بينما زحف الجفاف يشقق حنجرتها التي تبيست منذ لحظات... همست:

- مع السلامة...

وسقط المطر غزيراً.....

قراع الأبواب وسقوف المنازل، بطرقات قوية... لم تعهد المدينة مثله منذ أمد بعيد... لم يفتح أحد للمطر أبوابه... إلا مريم... ووحيدة كانت في الباب. ووحيداً كنت تسير في دربك المظلمة حيناً... والمضاءة ببريق الرعد حيناً.

... هادئاً رغم محاولات الريح التي تدعوك للرقص المجنون... فتشذك من ثيابك، ثم تتركك تمشي كما تشاء.... وتبدو كأنها تلاطفك في لحظات الوداع الأخير... آه يا ذلك الوداع... يا قصيدة عشق لم يستطع السيّاب كتابتها عندما ودع "جيكور"*

* جيكور قرية الشاعر السيّاب

شيء ما يشدك إلى "الرميلة" المترامية الأطراف... دون تنظيم... يشدك إليها وبيوتها
تتبعثر كبحور تفتش جسدها الممدود إلى جانب الفرات... تعبق برائحة التراب حين
يسقط المطر شتاء... والطيارات الورقية التي تطير في ظروف جوية غاية في السوء،
لما تداهما زوابع الصيف التي تنقب السماء بشكل لولبي... محملة بسفير القمح...
وأكياس الورق التي يصنعها الفقراء وقد اختطفتها منهم... متجهة صوب النهر لتنفصل
هناك عن الأرض... لكنها تستمر في تكدير صفو السماء.

آه يا الحسين...

ها هي الذكرى تفرّ إلى رأسك... كما العاصفة حين تداهم عاصفير الدوري... لتفرّ إلى
أوكارها في شجرة حاصرتها الصحراء...

فتلج إلى دماغك تلك الليلة... ومريم... وحارات الرميلة المظلمة.. والفرات... ونباح
الكلاب الضالة في الليل... ورائحة التفل المنبعثة من مصنع السكر... وحكايا الجن...
الجن التي تجوب الطرقات ليلاً، كما الشرطة تماماً.

هي الذكرى يا الحسين... تنتفض في رأسك كلما شقت سكون الليل صفارة الحارس
الليلي، فتأتيك أمواجاً هائجة لا شط لها... تقتحم المدن... وتمر بأعمدة الهاتف التي لا
تحصى... وتعبّر إليك الآن...

وها أنت الآن... أنت وحذاؤك تمزقان الطريق نهياً نحو البيت... الطريق التي ترتفع
صرخاته ألماً كلما رفعت قدمك وأنزلتها بمضيك نحو الأمام... فيمتد دونك بلونه
الأسود، يتوسطه رتل من أشجار نخيل تعانق ضوء القمر... الضوء الذي يكشف عن
حراب تنتصب متأهبة إلى كل الاتجاهات، فنتبين سعفات النخيل وعلى ذوائبها وقفت
النجوم تلتهم. تمسح وجهك غلالة حزن... تخفيها أعمدة النور وهذا الشارع الفارغ
حين يداهمك شعور خفي يعمل في قلبك شر تمزيق... يرتفع إلى أعلى ويهبط...
ويرقص كديك مذبح...

تسمع أنيناً... تلتفت ناحية الصوت... آه... هو ذا "دجلة" يرقص محزوناً.. تحديق في
وجهه.. تتعكس صورتك ونفس غلالة الحزن تراها تعسكر فيه... تلتفت يمينا...
شمالاً... أمام... خلف... عيون... عيون... عيون... بتناقل تجر قدميك. وقلبك لا زال
مشدوداً إلى "دجلة"... تتركه وتمضي... وإيقاع الرقص الممزوج بالأنين... يتبعك.

خروج على طاعة خليفة بغداد:

... الوقت متأخر ...

والليل بدأ يأفل، تسحبه خيوط ضوئية تعلن أن الفجر في طريقه للانبثاق. تستلقي على

فراشك، تريح رأسك إلى الوسادة... ثم تسدل جفنيك... وتنام.

... قبل لحظات وفي الليل الملبّد كانوا أربعة يتسللون من غرفتك خارجين كل إلى بيته.

يسرعون الخطى في كثير من الأحيان، ويندسون بالأزقة المظلمة في بعض الأحيان..

... "لا لقاء بينكم بأمر من الخليفة المعتمد بحبل الله" بلا سبب... فقط لأنكم آتون من

أعماق الفرات... لكنهم أربعة، وكنت الخامس التقيتم تحت سقف من الأعمدة المهترئة

والطين.

تحدثتم عن كل شيء في هذا العالم المتقدم والمتأخر... عن الجنون النووي الأمريكي...

وآلاف الأطفال الذين يموتون جوعاً يومياً في العالم الآخر... مخيمات الفلسطينيين

ومخصصاتهم التي تسرقها بعض الحكومات العربية... السمن الهولندي الذي يغزو

الوطن العربي.. سيارات الـ"رينو" والـ"مرسيدس" والـ"بويك" وهي تفتت سرايين

المدن الغارقة في محيطات النفط.. والأزمة أمام أفران الخبز المحروق... تحدثتم عن

كل ما في العالم.

ذهاباً مع خطوط الطول وإياباً بخطوط العرض... مروراً بالأمم المتحدة وقوات

الانتشار السريع، والقوة المتعددة الجنسيات، والفيثو الأمريكي... وفيتنام.. وسقوط

الشاه، ورساصة المنصة التي قتل عليها "أمير المؤمنين" بولاية مصر... مروراً

بأشعار أمل دنقل ورسائل توفيق الحكيم إلى الله... وضبابية القلم العربي في ساحة

الأنظمة.. وحرب الخليج.. ثم الأسلاك الشائكة الرابضة بين دجلة والفرات... لم تنسوا

الحديث عن "الرميلة" و"بغداد"...

وحين انسلّوا في الليل أربعة، ثقبت أجسادهم "عيون" تلفها العتمة.

زيارة الخليفة لبيت الحسين بن علي:

- طق... طق.. طق..

... هادئاً يأتيك الصوت....

تتململ في فراشك... ثم يعاد الطرق ثانية...

- طق... طق.. طق..

تفتح عينيك... تنصت... والصمت مولود مرمي في أعماق بئر لا حياة فيها... تزيح

الحاف عنك... تشق العتمة إلى الباب، لترى من القادم قبل انبلاج الفجر...

- من.....؟

- أنا.... افتح يا حسين.

تسري الطمأنينة إلى نفسك... تخطو بخطى متتدة نحو الباب... تفتحه... تخرج... ترد

الباب خلفك بهدوء، و... حين تلتفت ناحية الرجل... تلمع في عينيك الأسلحة. قبل أن

تتبين الوجوه.... يخرق الصوت أذنيك:

- الحسين بن علي... مواليك الرملة... وتقيم هنا في بغداد؟

- نعم....

- تفضل معنا.

- إلى أين....؟

تقطع الكلمات السريعة سؤالك... لتخر صريعاً... تمرّ لحظات... تشعر بعدها أنك تهتز

داخل سيارة يطبق الصمت عليها، إلا محركها الذي يئن بقوة... ولا ترى أحداً،

فتلفي عينيك معصوبتين...

زيارة الخليفة الثانية للحسين بن علي:

بلا ضجيج يجيء...

بلا ضجيج يطل الرأس ذاته بعمامته، ويبدو كصندوق فارغ... يطل من درفة باب الزنزانة، يرسم على وجهه ابتسامة صفراء.. لا تتعد عن "التكشيرة" كثيراً....

- إي صديقي الحسين....

قيل إنك تضع في بيتك حبل غسيل لا تنتشر عليه ثياباً.. لكن تري الناس أشياء لم نرها حين رأيناها.. فما رأيناها ليس سوى بضع لقاطات وضعت من زمن بعيد... وبعضها جديد وأماكن لأخرى ستوضع... فأين الترخيص؟

- ولكن يا مولانا الخليفة -يا خليفة الله في الأرض- قد أوصى الرب من خلف المنبر وأمام جمع من ملائكته الذين صفقوا له بحماس منقطع النظير... قد أوصى أن يصنع كل منا حبل غسيل حين يكون لذلك لزوماً... هو ذا ترخيصي يا مولانا كتبه الرب في التوراة وفي الإنجيل... وفي القرآن... وفي صحفنا المحلية كذلك... فماذا فعلت؟

أين الذنب يا مولانا إن أذنبت؟

- اصمت... اصمت... اصمت...

هذا الترخيص أعطاه الرب لمن لا يملك يدين وعينين وأذنين وفماً... اصمت... وإلا أرسلت رصاصة تفتح في رأسك نافذتين... يدخلهما جوعى وكلاب الأرض لتلعق دمك وتأكل أحشاءك.

- لكن يا مولانا... لا أذكر إلا ما قال الرب...

- آه.. ها أنت تكفر ثانية حين تلوك اسم الرب... أقسم بحذاء الرب، وثانية أقسم بحذائه هذا الرأس يخطو نحو أنشوطته... هيئه يا الحسين... فعبد الله بن محمد سيلقاك غداً..¹

يخرج صافقاً الباب خلفه... والزبد يمرغ وجهه..

يقف السجان أمامك... يمسك بباب الزنزانة... يحكم إغلاقه... يحرق في وجهك طويلاً... ثم يغيب...

¹ عبد الله بن محمد: قاد ثورة عبيد البصرة إبان حكم المعتمد بأمر الله في القرن الثالث للهجرة.

الحسين بن علي يولد في بغداد

يصر باب الزنزانة صريراً مرتفعاً، فيرتد صداه في الليل الساكن، وأنت تتكوم على نفسك... وقع خطوات قليلة، لا يلبث بعدها أن يعم السكون كل شيء... ثمّة أحد... يمسكك من خلف عنقك... يرفعك إلى أعلى... تقف.. يدفعك إلى أمامه... تستدير إليه... السجان... يضع على عينيك ربطة سوداء... ثم تسيران في بهو السجن، وباب الزنزانة ما زال مفتوحاً. يبدأ رحلة الانتظار القصيرة... وقد بدا كفرس بلا فارس. بعد دقائق...

يتوقف هدير السيارة... ينزلك السجان... وتسير بضع خطوات... وبضع درجات خشبية تصعد.. تتوقف... يفك الربطة السوداء... ودفعة واحدة يندفع العالم إلى عينيك عبر الأنشودة المتدلية.. الخليفة القابع كصرصار في زاوية العرش.. ورجال بلا ملامح يلتفون حوله... والنهر الذي يجري بجانبك بصمت.. مثل شيخ عجوز يتلمس طريقه وهو ينوء تحت كومة حطب ثقيلة... مريم... والرميلة. تمسح وجه الخليفة بنظرات ثابتة.. وتطيل فيه النظر... تنتسع حدقتا عينيك... تنتسع... تنتسع... وفجأة تتجمد الصور فيها بعد أن يدفع أحد رجال الخليفة الكرسي من تحتك.. لتسمع قرقرة عظام رقبتك تدوي بصوت مرتفع... تفزع الخليفة والغربان المعششة بالأشجار المتاخمة للشط... تمر لحظات كسلحفاة تزحف فوق لوح تنكي أملس... يتوقف فيها تيار المياه المندفعة إلى الرافد الآخر ثم إلى الخليج... عندما يعود طيفك إلى المدينة ماراً فوق النهر.

الرقعة 1984

خطوط في لوحة رسمتها الحرب

نظر من خلف النافذة، يبحث عن شيء ما وراء الأفق. أفكار كثيرة تجول في مخيلته، رجع إلى الورا وجلس على "الفجة" تمدد، زاغت عيناه بسقف الغرفة الخشبي. حول نظراته إلى الصورة المعلقة بالجدار، ارتسمت عليها خطوط وهمية مصنوعة من الشوق. امتدت مخيلته بأشياء كثيرة. تقلصت. الليل الدامس يلف المدينة، البرودة تنفذ إلى الأجسام الممتدة في الغرفة. موسيقى الريح الخفيفة ترقص الأشجار المصطفة على طول النهر. وقف مجدداً وراء النافذة. نظر، خط أبيض يجري بهدوء تام. الفانوس بأشعته الخفيفة يعكس ظلّ (حمود الشبلي) على أرض الغرفة وجدارها مناصفة. زوجه تتشخر بصوت مرتفع، ابنته تحلم بليلة زفافها القريب. رسم صورة وهمية بذهنه تعبر عن حالة ابنه على خط النار.

-1-

- ما بك يا رجل لا تفارق هذا المذيع؟
- لا بد أن صاحبنا ممن يحبون السياسة.
- لم تقل لنا ما هي آخر الأنباء؟

حرق بهم "حمود" بنظرات ساخرة، تابع طريقه بعربته التي يجرها حصان أبيض لم تلوثه أي نقطة سوداء. شد عنان الحصان قليلاً ثم أرخاه، أسرع الحصان، استوقفه أحدهم، نزل، حمل الأغراض على كتفه ورمها على ظهر العربة، سار صاحب الأمتعة أمامه دليلاً. الشمس قطعت نصف طريقها في السماء متجهة نحو الغروب. رفع صوت المذيع قليلاً، عندما قطع المذيع نشرة الأخبار بقوله "في الساعة الرابعة عشرة من بعد ظهر هذا اليوم بدأت قوات العدو بالاعتداء على مواقعنا الأمامية على طول خط إطلاق النار وتقوم قواتنا المسلحة بالرد على مصادر النيران وإسكاتها، كذلك حاولت مجموعات من طائرات العدو خرق مجالنا الجوي في القطاع الشمالي من الجبهة، فتصدت لها مقاتلاتنا، وتدور الآن معركة جوية بين طائراتنا وطائرات العدو، هذا، ولا تزال الاشتباكات مستمرة حتى الآن".

اخترق صوت المذياع أذني الرجل صاحب الأمتعة، عندما قربه حمود إليه. تابع المذيع نشرة الأخبار، تلاها صوت فيروز الذهبي، قفز الرجل إلى العربية جالساً بجانب حمود الشبلي، تحادثا عن الحرب أيام حزيران والنكبة. ابتسم ساخراً من أفكار رأس الرجل التي امتلأت خوفاً من الحرب. أنزل الأمتعة متمتماً مع حنجرة فيروز، ضائعاً بالتحسبات، لكنه ابتسم للرجل قائلاً:

- نصف ليرة ماشي الحال.

العربية تشق طريقها عبر الأزقة في المدينة، عبر المارة من أناس وسيارات وكلاب وأشياء أخرى. تتمايل عجالاتها يميناً ويساراً مشكلة خطأ أعوج. زخات المطر الخفيفة تتساقط على الطريق المعبدة، تتصاعد منها سيمفونية هادئة.

صورة ابنه لا تفارق ذهنه. أذناه تلتقطان البيانات العسكرية المتتالية. بسمة لا تفارق وجهه بعد كل بيان، الفرح يغمره، يخرج من المنزل ليزف أنباء المعركة إلى أهل المحال التجارية الكبرى.

برم صاحب الدكان كرسيه الدوار، وقال ساخراً محاولاً إسكات حمود عن أنباء المعركة:

- هس... لسع ما نسينا السبعة وستين.

غضب حمود، لهب قلبه ناراً حارقة، خرج من الدكان لا يرى طريقه.

- كان علي أن لا أذهب إلى هؤلاء لأخبرهم عن شيء لا يهمهم.

انفجرت أساريه عندما سمع بياناً عسكرياً يقول إن الجيوش العربية تتوافد على الجبهتين السورية والمصرية. وصلته أخبار بأن الجيش الأردني عندما مر بمدينة درعا خرجت دباباته مزينة بالزهور وأقاموا ديكات فرح بكل القرى، صدق هذا الكلام عندما مر بمدينة جيش عربي فوق الفرات فركض يقبلهم على جباههم.

-2-

1. والله يا سيدي ما رفعت سعر البندورة والفليفلة أبداً... أبداً.

2. اخرس يا كلب.. وبين المشتري؟

3. هو بنفسه يا سيدي.. وهذي بضاعته اللي اشتريتها.

1. اطلع بالسيارة... كلب... يعطيك العافية يا أخ.

2. أهلين سيدي.

شقت السيارة طريقها وسط المتجمهرين الذين التفوا حول التاجر ورجال التموين وراح بعضهم يقول بأنه يستحق ذلك. شدّ حمود رسن الحصان ومضى مبتسماً، ساخراً من هؤلاء الناس القلة.

سحابات الغيوم في السماء تسير، تكشف قليلاً عن وجه الشمس، يتجه حمود بعربته نحو النهر، يغوص في الشاطئ قليلاً، يمسح بقطعة خام مهترئة مبللة بالماء جسم الحصان. جماهير من المدينة تتجه نحو مكان معين، مكبرات للصوت ترتكز على سيارات عدة، تتبعثر منها نداءات موحدة تخترق حدود المدينة، يرتد صداها، يهرع حمود الشبلي تاركاً حصانه وسط الشاطئ يعلف من "عليفته" يسرع إلى المستشفى الكبير، يشمر عن ساعده، يغمض عينيه سارحاً بفكرة النصر. تغوص الإبر الكبيرة في ساعده، تمتلئ عدة مرات، تبتم له ممرضة جميلة.

على ضوء الفانوس الصغير يفتح حمود الشبلي كتباً لابنه الذي يقف على خط المواجهة، لافاً نفسه "بكبوته" العسكري./كتاب عن فيتنام - كتاب عن عربستان ولواء اسكندرون وبيروشيما وفلسطين. كتب عديدة عن ثورات عالمية أيضاً.
رسالة:

/ولدي... إياك أن تنسى هؤلاء الذين قرأت عنهم في كتبك، لا تنس أطفال وشيوخ بيروشيما، أطفال فلسطين الذين ينشرون ثيابهم المغسولة بين الخيام، إذا تذكرتهم وأنت على الخط فسأرفع رأسي بين أهل المدينة، أرفعه حتى يصل إلى السماء... سنفرح بك وبأختك بعد عودتك.

"والدك حمود الشبلي"

-3-

انطلق من جانب الفرات، متجهاً نحو كراج الباصات، سمع أن ابن جاره قد أصيب. ذهب وأهله ليطمئنوا على صحته، الريح باردة، الظلمة موحشة، المطر يتساقط بغزارة قوية. انطلق الباص يتدحرج ككتلة وسط خط أسود، مجارياً خط الماء الأبيض، يجر خلفه خيطاً من الدخان الأسود الكثيف، يتلاشى عندما يبتعد الباص. الركاب ما زالوا راقدين، لم ينم منهم أحد. أدار السائق آلة التسجيل وراحت أم كلثوم تتأوه من الحب

كراج الباصات في حلب مزدحم. صعد إلى باص دمشق وجلس ينتظر حتى يمتلئ. ثم انطلق.

- أبي لماذا أتيت؟

- جئت أطمئن عليك.

- بلغ أمي وأخوتي، أنني سأجيء في أول الشهر القادم. وأريد أن أبارك لأختي بالزواج.

- كما تريد...

المدينة كما هي لوحة رسمتها الحرب. تعج بالازدحام. العمل سارٍ بشكل جيد. الحي امتلأ وروداً ملونة من جميع الألوان. الفرح يعم البيت.

الأيام تمضي، تلتحفها الحرب، البيانات تخذش طبقتي أذنيه. الزواج انتهى. السماء تمطر. النهر يجري. الورود يبست. الحزن يخيم على البيت. ببطء يهبط، يطرق الباب طرقات خفيفة، ينقش الحزن، ينهض حمود فرحاً ثم... يسقط حزيناً.

مشى أمام الجنازة، ارتفع رأسه، اصطدم بالسماء، وجهه يمتلئ بسمة حزينة، أكملت خطوط اللوحة التي رسمتها الحرب.

الرقعة 1980

قراءات في وجه الوطن المقاتل

عندما حدق بعينين مليئتين بالاستفسار نحو الأمام البعيد، لاح له أول طابور الراحلين نحو الشمال خطأ متعرجاً، كل يحمل ما خفّ حمله.

في مؤخرة الطابور البشري كان وجدته يحاولان اللحاق، توقفاً، التفتت الجدة إلى وراء، مطلقة لنظراتها العنان باتجاه المدينة القابعة هناك بعيداً - عند بداية الطريق، ركعت تجهش بالبكاء، إلى جانبها وقف "عزام" ابن العاشرة.

سألها عن والديه، وعن بكائها، وإلى أين يذهب هؤلاء الناس، ولماذا؟ رفعت عينيها الممتلئتين بالدموع التي انسابت مع تجاعيد وجهها، ضمته إليها، أنصتاً لصوت المدافع وهي تمزق حدود المدينة، قبلته.

- ستعرف ذلك يوماً ما يا بني...

ثم تابعا ليلتحقا بالطابور الذي راح يزحف بين السهول الشاسعة ببطء شديد وتحت أشعة الشمس وحرارتها الحارقة.

-1-

جلس قبالة جدته، يفصله عنها "الصاج" الذي احتوى بضع جمرات قليلة، يتصاعد منها الدخان خطوطاً ملتوية لتتلاشى، القنديل معلق إلى عمود الخيمة، يصدر عنه بصيص ضعيف، الريح في الخارج تصفر، تتسلل بين الخيام بينما الليل يفترس المخيم، تطلع بوجه جدته التي تلملت بجلستها كي تروي له رحلة سنين سوداء تلتحف بشتاءات وأصياف طويلة، ترويها للمرة المليون.

استرخت عضلات وجهه لترسم وجهاً أسمر يمتلئ باللهفة والحزن الشديد، يلتصق به شارب أسود وحاجبان كثيفان، أخذ ذهنه يتصور مباشرة ما تروي به جدته، القتل التعذيب، والده الذي رفض الخروج من بيته، والدته التي بقيت عند جنثه حتى سقطت قذيفة حولت البيت إلى قبر لهما.

الرحيل نحو المرفأ حيث قوارب الإنكليز لتقلهم إلى "يافا" الليل، البحر، الحي، اليهود وأسلحتهم الفتاكة، رابين الضابط الصهيوني الذي حاول مضايقة والدته، إنه يتخيله جيداً،

تقلصت عضلات وجهه، عيناه تسمرتا بشيء ما... ربما بوجه جدته... يحاول أن يرى حقائق أكثر لا تستطيع التعبير عنها، يقرأ ذلك الوجه رغم الضوء الخافت.. مال إلى الفراش وتمدد، أرخى جسده، أسند رأسه إلى كفيه، أغمض عينيه، حاول النوم، لكن ذهنه ما زال يعيد عرض ذلك الفيلم. أول الفيلم أسود أسود، يظهر طابور النزوح إلى الضفة الغربية للنهر من يافا، النزوح من القنيطرة، إلى بيروت، حزيران... أيلول... و...." وهذا حزيران آخر، أسود كالنفض، يتدفق ملوئاً الجباه باللون الأسود.

-2-

الحركة في الشوارع غير منتظمة، الاضطراب بادٍ على الوجوه، الخوف، صوت الانفجارات، طلقات الرصاص، صراخ الأطفال في الملاجئ-مقابر الأحياء- طائرات العدو تحلق في السماء تقصف المخيمات، أبنية بيروت تشتعل بالحرائق فيغطي الدخان الأسود المدينة، صفارات الإنذار، زعيق سيارات الإسعاف. "ألو... سيارة 7" إلى التماس، حاذر الشوارع الواسعة". عندما ضغط عزام على مدوس الوقود جارت السيارة الممتلئة بطعام المدنيين، اختفت وراء الغبار، لا يسمع سوى صوتها الذي راح ينخفض شيئاً فشيئاً، مهشمة الزجاج، يتسلل الهواء حاراً عبرها.. وضع نظارته على عينيه لتقيه الهواء وإلى جانبه استقرت الكلاشنكوف بجمالها الرائع.. سينقذ جريحاً، سينقذ أطفالاً جائعين من الموت، فقط لو زاد من سرعة سيارته "الستيشن" قليلاً، خفق قلبه بشدة، يده مسمرتان بالمقود، تزداد سرعة السيارة، يضغط على المدوس أكثر، تزداد، يرتجف مؤشر السرعة عند آخر رقم... أكوام البيوت والأبنية المهدامة على جانبي الطرقات، يرفع قدمه، ينعطف إلى أحد الأحياء... هناك حيث خط التماس مع العدو كان يرقد أحد المدافعين، خلف متاريس الرمل، وهو ينزف من كتفه اليمنى... توقف عزام، سحب رفيقه إلى السيارة، سقطا منبطحين وراحا يزحفان بعد أن انهالت عليهما رشقات رصاص خاطفة.

الغضب يعم كل مكان من المدينة، وابل من القنابل يسقط عليها، على الشرفات والشوارع.. جثث تفرش الأرصفة، تتسلل بينها القلط وهي تموء، تحاور الذباب في طنينه، ساعد عزام رفيقه على الصعود إلى السيارة، احتل مكانه خلف المقود ثم خلف وراءه جردان الأرصفة وأكوام الجثث والتراب والزباله وطلقات الرصاص وقذائف المدافع و"الأرجي".

بينما كانت السيارة تشق طريقها بسرعة فائقة على خط مستقيم خارج أماكن التماس متجهة إلى مبنى مستشفى الهلال الأحمر الدولي، تبعها طائرة برشقات رشاش وصاروخ. ينعطف عزام بسيارته إلى الأزقة ثم يدخلها إلى أحد المحال التجارية المخلوعة الأبواب.

"من يحب الوطن لا يربكه مآزق كهذا، إلى البيت هناك زوجتك ستعتني به. ثم عد إلى سيارة الطعام فهناك من ينتظره".

هذا ما جال في ذهن عزام وهو يسند رفيقه إلى كتفه، يسحبه خارجين من المحل إلى البيت...

-3-

- مئات القتلى والجرحى من المدنيين إثر القصف الصهيوني على بيروت الغربية...
- أفراد العصابات الصهيونية يرتكبون مجازر وحشية داخل المخيمات الفلسطينية في صيدا وصور...
- العرب يحرزون المركز الأول في الحصول على أكبر عدد من قرارات مجلس الأمن والجمعية العمومية والأمم المتحدة و... وحتى نوبل نفسه رحمه الله... وآخر انتصار لهم قرار 508 و 509.

تمعن بالصحيفة المهترئة بتقرز، صفراء تشربت ماء حتى غدت متموجة بالية، رماها بعيداً عنه بصق عليها... على كومة تراب أمام باب الملجأ كان يجلس، يدخن سيجارة، نظر في الداخل، كل شيء يسير بهدوء عدا صراخ الأطفال الذين اشتدت عليهم موجة الحر، تفرس في الوجوه، إطارات لصور من الحزن الطويل. في الأفق البعيد كانت العاصفة تعري مدن الصمت، وأمام صمت المدن هذا لم يكن لأوراق التوت سوى أن تسقط تاركة أضواء الشموع تتراقص بترانيم موزونة على أصوات طلقات الرصاص

"على كلِّ إنها استراحة درب طويلة"

وأخيراً استسلم لتلك الحقيقة التي لا بد منها. نهض من مكانه،

- بابا لوين رايح؟

- ناح البحر... بتروح معي؟

- في طيارات... ما تروحش.

- ما تخفش يا أحمد... راجعك..

أدار ظهره للملجأ... و صوب البحر اتجه...

-4-

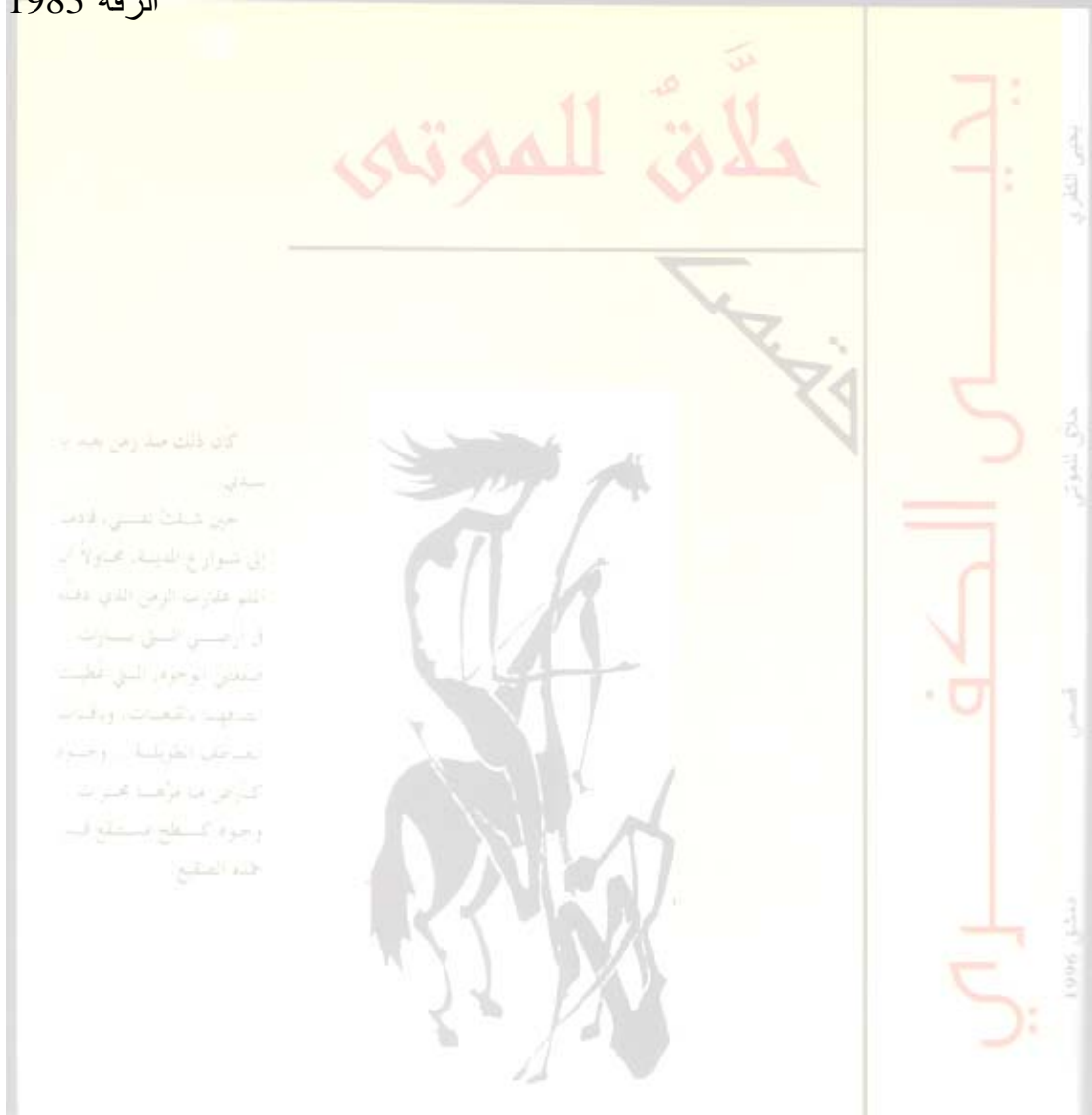
أفواج المقاتلين والمودعين بأرض الملعب كخلية النحل، زغاريد النساء اخترقت السماء
ملعلة يرافقتها أزيز الرصاص، دندن عزام وهو يحمل أحمد وحوله جدته وقفتا
ملتصقتين به، دندن بصوت منخفض:

أنا يا أخي آمنت بالشعب المضيع والمكبل
وحملت رشاشي لتحمل بعدنا الأجيال... منجل.

ثم بدأ يرتفع صوته ليتحول إلى عاصفة، الجماهير المحتشدة مقاتلين ومودعين تردد معه
بقوة وهي ترفع الأسلحة وأصابع النصر، وبعضها كان يمطر المقاتلين أرزاً لتزداد
ألبيستهم به جمالاً آخر... احتضن جدته وابنه وزوجته، احتضنهم بقوة، قبلهم، أصبحوا
كتلة بشرة ممتزجة ببعضها، يخرج منها بكاء خفي. تحرك رتل الشاحنات نحو المرفأ،
وثانية يتجه عزام نحو المرفأ بعد مرفأ يافا، قفز إلى الشاحنة ولوح بيده مودعاً ثم رفع
بندقيته، رفعها حتى غرزها في السماء أبحرت السفينة مبتعدة في لج البحر، ابتعدت.
لم ينزل بندقيته لأنها كانت تصنع في السماء شرخاً ينبئ عن حدث مشؤوم قادم لا
محالة.

تفرّس في البحر الذي بدأ يحتضر، حبس الدموع في عينيه ثم جلس ينظف بندقيته وهو
يحدق في بيروت يستعد للجولة القادمة.
تعقيب: عندما خيم ليل الخميس 16 أيلول سقطت آلاف الشهب والنيازك من السماء، أما
وجه جدته فكان مضيئاً، يعلن أنه ما زال يقاتل....

الرقعة 1983



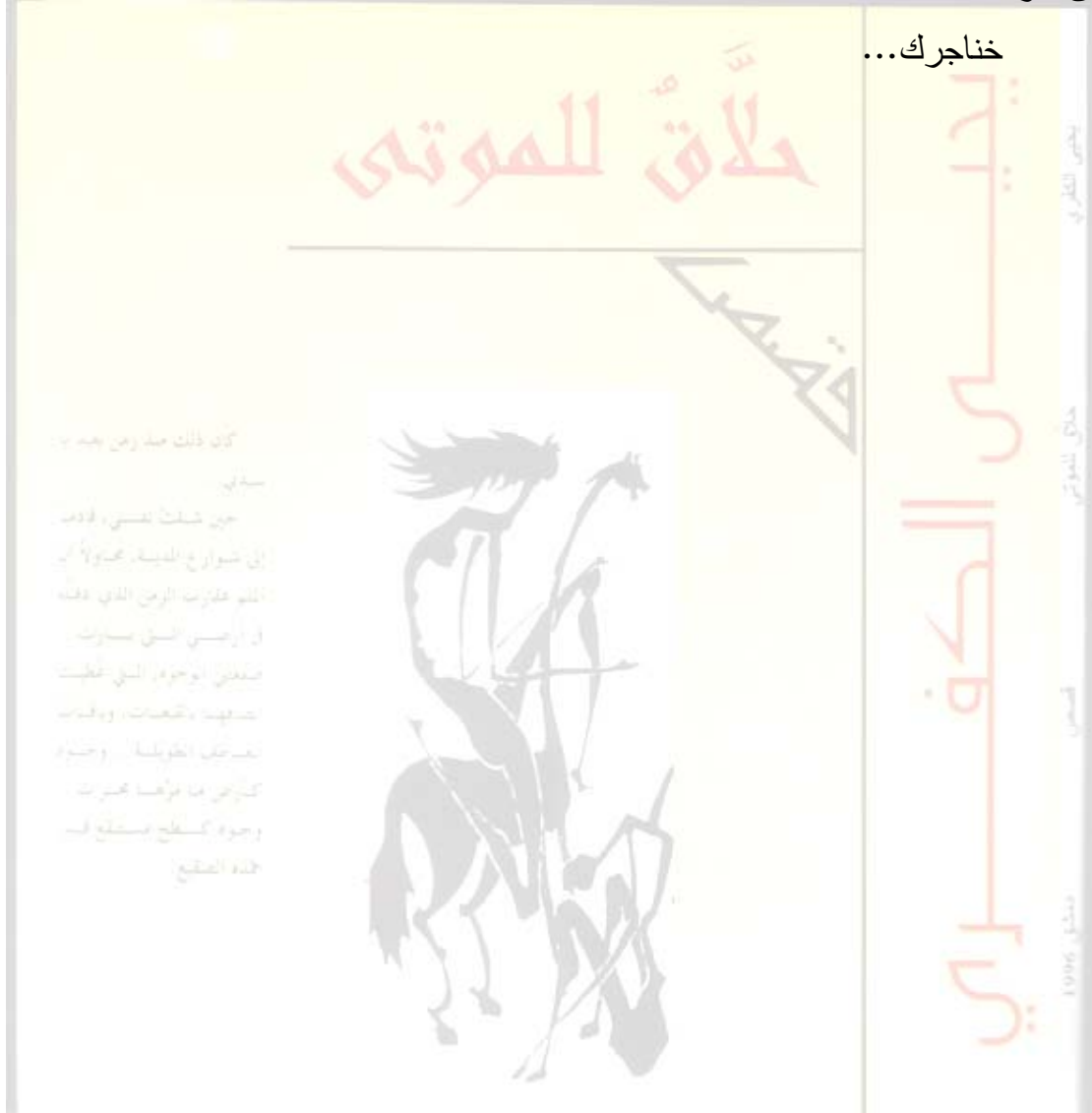
ويأتي حمود آخر

إلى أحمد... *

تغييبك الجراحات

فتمضي... ناسياً

أن تترك لنا



* أحمد محمود المصطفى الصديق الذي وافته المنية قبل أسبوع من صدور مجموعته القصصية الأولى "الخناجر"

حين زحفت عيناك، تتعربش التلة المطلة على القرية... كما تزحف يداك إلى صدر امرأة... حين زحفت قدماك، تزرع القبلات فوق التلة... وعندما وقفت ناشراً ذراعيك فوقها، وأنت تمج هواء القرية النقي، انساحت دموعك طويلاً.. ورأيتك مثل صليب كاتدرائية قديمة، ينبض بالحياة... هكذا رأيتك، فلاحت لك القرية جدراناً قليلة، تنتشر باللون الأسود... والبنّي، وحتى الجنس المهرب من المدينة كذلك... عندئذٍ حاولت مسامات جسديك أن تصرخ... أن ترفض... أن تعلن أن هذي الجدران تمتص السمّ ولا بد ستموت، ورفعت عينيك إلى السماء.. كانت الغيوم تتزاحم في طابور طويل طويل، وعريض عريض، تتدافع... تتدافع... ثم تتخرط في بكائها الأزلي، وهي تحتضن التراب... رائحة كانت وهي تبكي.. وهي تقتل الجوع، فتغرز رماحها الشفافة، القاتلة في صدر القحط... وهي تخلق إنساناً لا يعرف الجوع..

ورائعاً كنت حين قررت أن تحاول تغيير هذا العالم... العالم المحشو بالهواء... كبالونات الأطفال... أو كفقاعة قطرة مطر "تنفّش" على الطريق الإسفلتي... رائعاً كنت حين قررت أن تصنع عالماً نقياً، كأحمد محمود المصطفى... أو نقاء قطرة مطر... تغمض عينيك وتحلم، وكان حلمك جميلاً، لكن سحائب الماضي المشحونة بالموت، بالقهر، بالمدينة تغطيه...

- زين يا ولدي حمود، منشانك ومنشان الربع خمسين بس...

- خمسين ألف...؟

- إي نعم، ليش بنت المختار أخير من بنتي...؟

تمزق الكلمات ذاكرتك، فنتبعثر أشلاؤها، بينما يحاصر الضباب أضواء المدينة.

- عفواً....

تعنذر للرجل الذي اصطدمت به... تتابع قدماك التهام الطريق، وبلاطات الرصيف تمر من تحتها مسرعة، وأنت تتأبط ملف أوراقك... مشرقاً حيث غرفتك.

ستظل خمسين ألف سنة تشغل منذ الصباح الباكر حتى الليل، لتجمع خمسين

ألف ليرة... مهر مريم... تعرج على الحانة... تشتري بعض ما يشتريه البعض ليلة رأس السنة "على قد ما في جيوبك" وتغوص في الشارع ثانية، وصقيع الضباب يجعل من أنفك منبعاً لشلالات مخاط...
- تعال بأول السنة الجديدة...

تدخل غرفتك وتمسح نظراتك الأشياء المبعثرة بأرضها بشكل طفولي، الكرسي وقاعدته التالفة... الطاولة ذات الثلاثة أرجل... وسرير التتاك الصدئ الهابط في المنتصف... كل شيء كما تركته صباحاً... خمسة أشهر منذ تخرجت، وأنت تعيش وسط هذه الأشياء القديمة، فكانت مأساتك تتصاعد بخطها الدرامي شيئاً... فشيئاً... ما بقيت دائرة رسمية أو شركة... إلا وعدتك بالعمل.

- تعال الشهر القادم... قد نجد لك عملاً.

- وقال آخر: تعال الأسبوع القادم...

- وآخر: دائرتنا ليست بحاجة لشهادتك.

- وآخر: لا يوجد اعتماد... آسفين... وآخر.. وآخر.. وآ

نفس الكلمات، ونفس الأصوات ونفس الرتابة... تضع الأغراض وملف أوراقك. يفتح الباب ببطء... تطل منه (أم حسين) العجوز، صاحبة الغرفة، تسده بجسمها البدين. تطلب أجرة الغرفة...

- أمهيني قليلاً...

ساعات العام الأخيرة كالسحفاة تزحف ببطء... وأنت تحضر كأساً نظيفة... تسكب الخمرة... فتدلقها إلى أعماقك... بينما راحت أمعاؤك تتصارع في ميادين جسدك... تتقطع... تتفتت جوعاً... وألماً، تغرز عيناك أظافرها بملف أوراقك... فيستسلم لها المستقبل، كفريسة وقعت في الشرك، ولكنك لا تستطيع إمساكها... إلا بعد أن تنقضي هذي الساعات الأخيرة... فتفرع بجوفك كأساً أخرى، وتقع منتظراً...

تتكاثف الصور في مخيلتك، تشق عليك الهدوء الطويل... الذي تغطس فيه... وأنت تتمزق ليلة الاحتضار في هذا الزمن الموبوء... فعندما دخلت إلى إحدى الدوائر تطلب عملاً... فوجئت أن رئيسها كان زميلاً لك... أيام الدراسة... وكنت تعرف أنه غير مؤهل لأن يكون بهذه الدرجة...

لكن بعد أن جلست معه قليلاً، أدركت على الفور أن جذع الكرسي الذي يجلس عليه، ليس مصنوعاً من الحديد... أو الكروم أو من خشب الزان... أو السنديان... إنما كان جسد... امرأة. يومها أردت أن تلعن العالم... كل العالم... تحق بالصور واللوحات المعلقة إلى الحائط... فتبدو لك واضحة، رغم الغبش الذي يفصل بين حدقتي عينيك وبينها... لوحة "الغيفارا" وهو يسقي الأرض بدمه... ليلة اغتياله، وإلى جانب

- آه يا وجه مريم.

أحبك، يا من تكسر عليك تلال العشق.

المدني... شظايا

وحنايا... يختبئ فيها الدفء، مرايا،

لك يا وجه مريم، نبض قلبي، وحقول حلمي الراقص،

في جمجمة رأسي...

آه يا وجه مريم...

وتغيب مع وجهها، وأنت تلتحف بذات الليل، الذي يلتحف به هؤلاء... وقد
احمرت عيناك، وأصبحتا كجمرتين في منقل... ورأسك يكبر... يتوسع... يكبر...
يكس العالم بين أروقة تلافيفه... تزحف النشوة في جسدك... تتلمل... وفجأة يثقب
أذنيك صوت طلاقات رصاص... يعلن بداية سنة جديدة...

تشعر أن مريم تقترب منك، تقترب... تضحك.. تصرخ.. تبكي فرحاً..
ترقص... ترقص... ترقص، لكن جسمك لا يحتمل ثقل رأسك فتسقط، وتحلم طالاً
برأسك من درفة الباب، الذي لا تطل منه عادة رؤوس كراسك.

كان الباب-باب غرفة المدير العام... كبيراً، لذا كنت تبدو، أنت الرجل الهزيل
الجسم، الناعم كرائحة الياسمين صباح يوم جمعة حزين، فزماً، لا تصل بطولك إلى
أكرة الباب، لكن حين أصبحت رأسك في حيز الغرفة خفق قلبك بشدة، وتمنيت أن
تعود، إلا أن صوت المدير جرك إلى الداخل:

- شرف أستاذ حمود.

وتقدمت.. ناعماً كيرقة كنت... وقلبك لا يزال يخفق بشدة، قال لك المدير العام،

وهو يقلب سكين طاولة المكتب، يلوح بها أمام وجهك:

- يا أستاذ حمود... نحن هنا نهتم كثيراً بالوقت، ونسير على الحكمة القديمة التي عرفتها بقية الشعوب، والتي تقدمت حضارياً لأنها سارت عليها... الوقت كالسيف إن لم تقطعه... بترك. أنت اليوم تأخرت عشر دقائق، إذا تكرر هذا التأخير سنلجأ لاتخاذ عقوبة شديدة بحقك. أرجو أن تتذكر أنه عليك النهوض من حضن زوجتك قبل عشر دقائق من موعد نهوضك الطبيعي...

- يا سيدي لست متر...

وانتهت محاولتك لإيضاح أنك لست متزوجاً وإيضاح السبب الذي جعلك تتأخر يبتّر المدير العام الحديث ويترك من غرفته... فخرجت منزعاً إلى غرفتك حيث الطاولة في ركن قصي من غرفة تحازي دورات المياه، وبوفيه أبو ممدوح. جلست... نفضت رأسك ثم انكبتت بها على الورق ومصنفات صفراء قديمة. حين عدت مساء كانت ما تزال كلمات المدير العام تجول في رأسك، لذا بمجرد أن وصلت "ربطت" الساعة على السادسة صباحاً، خلعت ملابسك، ونمت. صباحاً.. حين أفتت من نومك كانت الساعة قد تجاوزت الثلاثين دقيقة بعد السادسة، تأخرت... وبسرعة ارتديت ملابسك، وخرجت، خرجت ناسياً أن تغسل وجهك، وفي أول باص للنقل تشبثت، واضعاً قدماً فيه والأخرى على الحديدة الواقية لمقدمة الباص، وأمسكت زند المرأة فصاح بك السائق:

- لا تكسر زند المرآية يا سيد...

أفلتتها، كدت أن تسقط لو لم يمسك بك أحد الركاب من ياقة قميصك، وشدك إلى الداخل فتمزقت الياقة. في ذلك اليوم عدت متأبطاً رزمة من الأوراق، وفي يدك كيس فيه ثلاث ساعات من نوع المنبه الصيني، ومع أول نسمة باردة من الهواء أحسست بالعرق النديان على جبينك، وتذكرت المدير العام الذي لم يكن يغيب عن ذهنك، فلم تتم باكراً كالعادة، بل سهرت حتى وقت متأخر وأنت تحاول حفظ مواد النظام الداخلي للدائرة، وخاصة بند العقوبات، وفي الصباح عندما كنت تتجه إلى عملك، كانت المدينة لا تزال نائمة، فشعرت بالارتياح، وسرت طويلاً حتى مكان عملك، فوصلت قبل عشر دقائق...

- طز في المدير العام...

قلت في داخلك، ووقفت تنتظر مجيء الموظفين... مرّت الدقائق العشر بطيئة،
وشعرت بثقل الزمن حين يكون في غير صالحك... انتظرت طويلاً قبل أن يأتيك
حارس المبنى مبادراً بـ "صباح الخير"... سألته:
- خير... أرى أن أحداً لم يأت بعد؟
- سلامتك أستاذ حمود... اليوم جمعة "عطلة".

ووقفت دهشاً، لم تشتم أحداً، لم تضحك، أو تصفرّ مستغرباً كيف غاب عن بالك
يوم العطلة، لم تكن تعرف ماذا تفعل، فقط نظرت إلى رزمة أوراق النظام الداخلي الذي
بيدك، حدقت ببند العقوبات، وفكرت أن تحطم المنبهات عندما ستعود إلى البيت، لكن
جرس المنبه أيقظك...

تتقدم فرحاً، باتجاه موظف الديوان... يبادرك:

- آسفين أستاذ... خطة الاستيعاب لم توضع بعد... تعال بعد شهر...
- تعال بعد... بعد...

تترجع... تترجع... تخرج لا ترى في الشوارع أحداً... يا حمود السلوم.. إيك ودع
هذه الدموع تتسكب على جثتك التي تحترق... قد تطفئ النار المتأججة فيها... قد تهدئ
الأم الذي يلتهمها بلا رحمة... إيك، لكن بصمت، فهذا الانتظار يجعل من أعصابك
أوتاراً، يعزف عليها ألحاناً تخنق الطفل الذي يسكنك، تحرقه ليتحول رماد جسده إلى
بذار... فتسقيه تلك الدموع، ابك يا صديقي، ابك وبصمت أرجوك، ودون أن تغمض
عينيك... فمن حقا أن لا ترى إلا المقاهي وهي تعج بالرواد.. ليل نهار... من حقا أن
ترى كل شيء أسود... ما دام الضباب يندف رذاه... كثيفاً... فما هي العجوز تطرق
بابك ذات صباح... وكنت ميتاً، فلم يجبه أحد... ولما دخلت، احتفظت بحقيبتك، بدل
أجرة الغرفة، وعندما جاءت سيارة الإسعاف والشرطة لتأخذك إلى براد المستشفى لأن
الحكومة تكفلت بمراسيم دفنك-كان في أول الشارع.. شاب يقبل.. شاقاً طريقه بين
الناس وهو يحمل حقائبه... وحين وصل إلى العجوز... قال لها...

- أخبرني حلاق الحارة أن لديك غرفة فارغة... اسمي حمود الطعمة...

طالب متخرج وأبحث عن عمل..

وعندما انتهى من كلامه.. تفرّست بوجه العجوز... بوجهه... بوجهك أنت...
بوجهكم، ثم رفعنا أيدينا نقرأ الفاتحة على روح الحاضر اللاحق.. فقد جاء رجل
آخر.. أو.. أو حمود آخر... يستعد للدخول إلى البراد، فتحاصرك جدران الغرفة

وها أنت الآن، تقف مطلاً على القرية كصليب، تاركاً خلفك أربعة عشر عاماً،
سحقتها المدينة كما تسحق العاهر بكعب حذائها بقايا سيجارة... أربعة عشر عاماً تمنيت
لو تنتهي. وعندما انتهت... تف... بصقت بوجهك العاهرة... أربعة عشر عاماً وبدايتها
تربطك اللحظة بذلك المساء.. كان صحراء قاحلة، ومريم الفرس الجامعة -وقد هدّها
العدو- تنزف دمعاً وعرقاً- كما يرشح الدن أو قرية الماء.. وفي تلك الصحراء.. في
ذلك المساء المجدول بالعمّة، كنت الفارس الذي يترجل... وإلى المدينة ترجلت.. تفتح
عينيك.. وكنت ما تزال صليباً... وسنابل القمح التي تحني ظهرها... تبكي الندى
فرحاً... ومريم تركع أمامك بخشوع.. بينما يقوم الفلاحون بحرق خمسين ألف ليرة،
تقبلهم جميعاً... وتتحدرون باتجاه حقول السنابل.

الرقعة 1982

كان ذلك من ربيع
سدي
حين شئت نفسي، فدمت
إلى شوارع المدينة، محملاً
الشمع فخرت الزمن الذي دفنت
إلى أرضي التي سوت
صغرى الوجوه التي غطيت
اصفها، شعرات، ووقفت
تعدّني الخويلة، وحناء
كأجر ما مرّها حمرات
وجوه كسطح مستنقع في
جده الصقيع



أبو صالح يخوضها حرب استنزاف

في الساعة الرابعة والنصف صباح أحد الأيام من عام الـ 48، خرج نايف العبدو من حيفا، قاطعاً ساحة الميناء-ساحة القناصة بأعجوبة، خرج عائداً إلى -المتاعية- القرية التي غاب عنها طويلاً، باحثاً عن عمل، فكان ميناء حيفا مصدراً لرزقه، يومها سار مئات الكيلو مترات على قدميه، ماراً بالبيارات وهو يقسم إنه لن يركب زوارق الإنكليز التي تقلّهم إلى عكا، وإنه لن يغيب عن الميناء طويلاً، بل عائداً إليه لا محالة... وفي أول يوم وصل فيه القرية، قرر أن يشتري عربة وفرساً بالمبلغ الذي جاء به من عمله بالميناء.

- شو يا أبو صالح، مالك شارد؟

- ها...

- بدكاش تخلص حفر، هضول الكلاب قربوا يجوا.

قطع حديث عبد الرحيم الأحمد الذكرى، وتابع الاثنان الحفر، لكن الذكرى تابعت طريقها، ومن البعيد لاحت له الحرائق، ومن بينها ظهر ابنه صالح يرتدي بزّته العسكرية، وعلى فمه بزغت ابتسامة، رغم النار التي أكلت وجهه يوم الإغارة أثناء حرب الأيام الستة، رنت بضع كلمات في رأس نايف العبدو وكانت الأخيرة:

- يابا، ظل على تخرجي شهر، رح آخذ إجازة قبل التحاقني بالقطعة.

وانساحت دمعان على وجنتيه... حدّق عبد الرحيم الأحمد بوجه أبي صالح، الذي توقف عن الحفر، وتطلع نحو الأفق... كان كل شيء يبدو هادئاً، لكنه الهدوء الذي يسبق الرعد في منتصف ليل شتائي، مسح بكمه الدموع والعرق الممتزج بها، وسأل:

- فيش أخبار جديدة؟

- زي ما سمعت، جحيم بتل الفرس...

جال نايف العبدو بنظره، ماسحاً الأرض الشاسعة، وكانت مليئة بالحفر كوجه مجدور.

- رح خلّي هالتل، تل فرس جديد، بدنا نشترى عربات... ظل معك مصاري؟

- لا... بستدين من المختار... شو رايك؟

- طز في المختار، قاعد بببته مثل النسوان... شاطر يفتح على إذاعة لندن

ومونتيكارلو وإسرائيل، ويتفذلك عن قرارات الأمم المتحدة، وبس تطلب منه

جفف كفيه المتعرقتين، وتابع الحفر....

كانت الشمس في قبة السماء، والحرارة لم تعد تطاق، حين أعلن انتهاء الحفرة، التفت إلى عبد الرحيم... طلب منه إحضار العربة وتوجه لمساعدته. وضعها داخل الحفرة... وجّها عموديهما إلى أعلى، ثم قاما بطمرها وإخفائها تاركين العمودين يظهران بشكل جلي...

تطلّع حيث الجهة التي ستأتي منها طائرات العدو بعد قليل، أنصت إلى البيان الصادر عن الراديو الصغير الذي بدأ يضعف صوته وينوس... رفعه من مكانه... وعلى صخرة صغيرة، قرّب من أذنه، ثم رماه بعيداً:

- تفو... انتهت الحرب على الجبهة المصرية... كلاب، والله لخلي

هاالأرض مقبرة لذخيرتهم، عبد الرحيم...

كان عبد الرحيم يلمّ العدة مهياً للعودة إلى القرية...

- خيلنا نستعجل نرجع عالقرية... صرنا بحاجة لعربات أكثر...

الكلاب استجدوا بالأمم المتحدة... وقفت الحرب عالجبهة المصرية... يعني رح

يركزوا علينا.

- يا الله...

سوّى نايف العبدو التراب حول العربة الرافعة رأسها إلى السماء بقدميه. ألقى

على المكان نظرته الأخيرة.. كمن يودّع فقيداً...

التفت ناحية الأفق وضحك... ضحك طويلاً... ولم تنقطع ضحكته عندما أغارت

مجموعة من الطائرات على التل، وأفرغت ما بجوفها من ذخيرة، بل تردد صداها بعد

أن صمت الانفجار حتى وصل إلى المتاعية، حيث الحدود... ممتزجاً بصراخ عبد

الرحيم له... وحين وصل إلى التل، كان كل شيء قد هدأ، ولا شيء إلاّ بضع أشلاء/أبو

صالح/ والعربة، ورائحة دواليبها المحترقة تملأ السهل المملوء بالحفر... لكنّ أحداً لم

ينسَ ضحكته...

ففي كل مغيب يتردد صداها من القبر المعرّش كدالية، المظلل بعربة تشمخ برأسها إلى

السماء، كمدفع يستعدّ لحرب جديدة، وحوله تحوم الفرس محدقة صوب الأفق... تظللها

شجرة زيتون ما زالت تكبر....

دمشق 1988

السوط

الليل حيوان مفترس، يمضي بشراسة نحو المدينة، يتغلغل فيه الجوع والقتل رغم أن الحارس يجيء ويدبر أمام محرسه بعينين كعيني ثعلب وأذنين كأذني أرنب. الشوارع تحتضن الكلاب والقطط الباحثة في تلك النفايات عن شيء تقتات به دون جدوى، الظلمة عباءة بدويّ سوداء تغطي الجسد "المدينة". مطرزة بالسكون المولود من رحم الضجيج الذي كان قبل ساعات يزجر بالشوارع المكتظة بالجماهير.

كل شيء حولك يوحى بالسكون يوحى بالسكون، الليل، الطريق الخالية الطويلة... صمت... صمت... صمت..

- لقد تعبت يا بك... أريد أن أستريح؟

فجأة يتسلل صوت أبي حسين يخترق ذاكرتك، يخرجك من الصمت الذي يلفك، صوت خافت يصدر من فم ذلك العجوز، ذي الشاربين الكثيفين، الصفراوين فترتسم صورته أمام عينيك من جديد، حاني الظهر، نحيف الجسم متوسط القامة، هادئ الطبع، وئيد الخطوات، ومن بين شقين صغيرين تطلّ عيناه اللتان لا تتوقفان عن الحركة، لتتفحصا المكان الذي يجلس فيه بحركة لا شعورية:

- يا بك، لقد تعبت أريد...

وقبل أن يكمل العجوز كلامه يستدير "أبو رشيد أفندي" نحوه وبغضب شديد يتدفق معه زبد من طرفي فمه قال:

- اسكت أيها العجوز القدر عليك لعنة الشيطان، تابع شغلك... قال شو تعبت... بدك ترتاح وتشتغل على كيفك؟

- لكنني تعبت فعلاً يا بك...

تنفض جمجمتك يمناً ويسرى، تنفضها جيداً... تتكوم صور الماضي برمته، مبددة ظلمة هذا الشارع. كان الوقت صباحاً من أصباح الصيف، والندى يخيم على سنابل القمح، الحصادون آلة نقشط الحقل لتحوّله إلى جبل من حبوب، ومن ثمّ إلى أقراص خبز أسمر يحلمون به... لأنهم كانوا يأكلون خبز الشعير الذي ما إن يشم الهواء حتى يتحول إلى خبز من حجر.

الرؤوس مطأطأة بجانب السنابل، وفي كل جمجمة حلم يختبئ كمنشور سرّي... في هذا الوقت ارتفع السوط عالياً وحجب أشعة الشمس عن الحصادين.. ثم هوى على رأس

يزحف الخبر إلى الأذان بصمت، ينتشر بسرعة في الحقل... ترمي المنجل وتركض نحو "القاوش". ترفع المناجل، يتبعك الفلاحون وزوجاتهم، يأخذون طرقاً مختلفة خلفك وصيحات عالية تمزق السهول الممتدة أمامك، يصل إلى أذنيك صوت الأفندي:

- لوين يا جماعة، ارجعوا لشغلكم، لوين رايحين؟

- أبو حسين مات... قتلتُه.

تردّ عليه، يشتمك بكلمات بذيئة، تتابع الركض نحو بيت أبي حسين، تطاردكم الخيول لإرجاعكم إلى الحقل دون فائدة، تصلون إلى الساحة، تلتقون حول الجثة المغطاة، تكشف عنها، تعرّضها للشمس، ترتفع الصيحات وولاول النساء تدق أبواب السماء تعلم قدوم ضحية جديدة من ضحايا الأفندي. يلحق بكم ورجاله، يقفون أمام الساحة، يرقبون الأمر بصمت.

- شو ولك يا عبد الله المنحوس.. صاير زعيم يا كلب.

تنقب أذنيك، تدار نحوه، تقترب، يقترب وبیده السوط الأسود الذي لم يزل يلحق بقايا طعام جسد العجوز. الفلاحون يحدقون بكما، أنت وبيدك منجل التقطته من يد إحدى النساء، وأبو رشيد وسوطه، وصوت "محيميد الجعل" ينخر ذاكرتك:

- إنه (نغل) إذا رفس أحداً كانت القاضية... فقط، بأن يضغط على زناد العصملية. الغول بعينه كان... ينتصب أمامك كعمود إسمنتية... يغيب صوت محيميد الجعل ويبقى النغل، الأفندي ورجاله يتأهبون مثل كلاب الصيد، ترفع المنجل عالياً، تهوي به على رأسه، تتدفق الدماء كساقية مكسورة، تلتخ ثيابه، ترفعه ثانية، لكنك لم تشعر أنه سقط في موضعه، فقط تشعر أن الصراخ قد ازداد ثانية بشكل عالٍ جداً.

عندما فتحت عينيك كانت يداك وقدماك مقيدتين إلى باب الزريبة من الداخل، وروث البقر يعبق بخياشيمك برائحته النجسة...

الظلمة تستبد على المكان، تنتشر لونها المكروه وصوت الثيران وهي تخور تمزق طبطتي أذنيك... تنتظر من شقوق الباب، يبدو أن أحد رجال الأفندي يروح ويجيء أمام

تحسّ بألم يهزّ كيائك، تتلمس أماكن الوجع آ... هنا في ظهرك ينفر شريط أحمر من لحم، صنعه صراخ السوط النازل ملتويًا على جسدك، الآن تشعر أنّ آلام وأوجاع العالم تقيم في جسدك، تعسكر فيك وفي أفراد القرية. هل تظن نفسك إنساناً من وجهة نظر الأفندي.. لا... لا يا عبد الله العلوان... لست إلا آلة، عليك أن تذهب للعمل منذ طلوع الشمس حتى يختفي آخر خيوط ضوء الغسق، فتعود خائر القوى، منهكاً... تغوص في الوحول... مبلل الثياب أيام الشتاء، ترتجف من البرد... تلجّ باب الحوش مسرعاً... تدخل الغرفة، تتجه نحو الجمرات الملتهبة في قعر "الصاج"... تمدّ يدك إليها، تلتقط بعضها كي تشعر بالدفء...

تعاود النفخ في يدك لتحافظ على الدفء الذي تسرّب إلى عروقك:

- هل يوجد طعام يا أم نجيب؟

- لم يبقَ شيء من البرغل... حتى إن الولدين ناما جائعين...

تتحني تقبّل ولدك، تخلع ملايسك وترميها إلى الصندوق...

تطفئ أم نجيب شعلة الكاز...

تنام لترتاح من عناء تعب يوم، مهيناً نفسك لليوم التالي... آلة ميكانيكية ذات نظام منتظم الحركة. يقف عاملاً عليها ذلك الأفندي... أبو رشيد... يسيرها بإرادته، كيفما يشاء، تلك قرينتك "المتاعية" التي تحاذي الحدود الجنوبية، وها أنت تجلس مسجوناً في هذا الإسطبل... ترتجف من البرد... تتكورّ حول نفسك، تبدو كقنفذ. ساعة هربت انطلقت رصاصة اخترقت كتفك اليمنى فمزقت سكون القرية التي كانت تغطّ في نوم عميق... ركضت من زقاق ضيق إلى زقاق أكثر ضيقاً ورجال الأفندي يطاردونك، وحين ابتعدت عنها التفتّ خلفك، كانت العتمة تحجب عن عينيك رؤية القرية... أحسست أن قلبك قد سقط إلى أسفلك... ثم تابعت نحو المدينة لتبدأ من هناك.

الذاكرة والأرض كل ما تبقى من الماضي الذي راحت صورته تندفع مثل اندفاع أمواج البحر نحو رمال الشاطئ، تندفع بقوة وتتحسر لتلتحم مع بعضها مشكلة المد والجزر.

ماذا تتذكر لتتذكر؟... المداهمات التي كان يقوم بها رجال أبي رشيد بينما كنت

تدير مع الفلاحين اجتماعات سرية تحت جناح الليل...

جمعة الشعلان أحد الخدم الذي ضربته ابنة أبي رشيد عندما ضبطته يقرأ عنوان كتابها "الثورة الفرنسية" الذي كان موضوعاً على طاولتها.
"سمعوا" الذي قتله الأفندي لا لشيء، فقط ليرى الأخير نفسه أنه باستطاعته إصابة هدف على بعد قريب...

اركض يا عبد الله... اركض وإياك أن تسقط شيئاً من حلويات الأولاد... طبعاً أصبح لك عيد ميلاد، أحمل لهم الحلويات والتفاح والكاتو... هه... هه... والله زمان يا عبد الله العلوان، بعد أن كنت لا تذوق رغيف القمح أصبحت تأكل الكاتو وتحقل بعيدك.. اركض، فالسما تفتح أبوابها ترسل أمطاراً غزيرة تجوب بسيلانها الطرقات.
في الصباح... حينما وقفت على "الجالي" ترقب الأرض لاح مقر الجمعية الفلاحية -منزل أبو رشيد سابقاً- كان ينتصب بشموخ، أما ظلُّك فقد امتدَّ يفترش الحقل والسهول، تتحسس كتفك اليمنى وجسدك ثم تتبسم.

حلب-شباط-1983

كان ذلك مديراً جدياً
حين شئت نفسي، فدمت
إلى شوارع المدينة، محملاً
ألموم عقوبات الزمن الذي غفقت
أو أرحس السنين سوات
تبعني الأوجوه التي غفلت
تصغرت، تقصرت، ووقفت
تعدى حياض الخولبة، وحينما
كنا نحن ما نألفها محبت
وجوه كسطح مستقيماً
جده الصقيع



حلب للوطن
الكتاب
الطبعة الأولى 1986

تراثيل شديدة الكآبة

بيروت ... من أين
الطريق إلى نوافذ
قرطبة؟

محمود درويش



1. ترتيل الروح

للذين كعبتهم الأوسمة

ويتلون الصلوات، بخشوع

وصمت الموات،

وعلينا... يفوتون الأزمنة...

ليس من يستطيع أن يوقف

الحياة.

2. ترتيل الآب:

هل رأيت القمر؟ سألت.

لم يك أحدٌ يجيب، قلت لنفسي ربما لم

ولن يطلع ثانية، رغم أن الحصار عن المدينة

انفك، مخلفاً إياها أكوام تكالي وحجارة وتراب.

- هل رأيت القمر؟

- هل رأيت القمر؟

ولا أحد يجيب، ولا ليل يجيب.

آه يا أحمد...

هدتك الطرق التي جبت، شتاءات طويلة أرهقت هذي القامة يا أحمد وليس ثمة

ما يوحى بالحياة، سوى السراب المتراقص على دروب المدن التي أدت لها ظهرك

باحثاً عن القمر، ليس ثمة ما يوحى بالحياة سوى نعيق غراب على الأسوار، وعواء

لابن آوى يجيء منبعثاً من أعماق هاتيك المدن.

شتاءات طويلة مضت، والقمر الذي غاب حين دخلت العسكر المدينة لَمَّا يزل غائباً.

شتاءات وأصيف طويلة مضت... والآن كل شيء يبدو هادئاً أو هادئاً فعلاً...

فالرصاص سكت، واختفى عنين العجلات العتيقة، وما عاد هناك صوت لجدار هدته

قذيفة، إلا قلباً غاب عنه قمره، لا يملك إلا سؤالاً يضحج بين حين وآخر كعواء ابن آوى

فوق جثة:

- هل رأيت القمر؟

كل شيء قد هدأ الآن... وأنت الآن يا أحمد، تقعد تعباً أمام باب البيت، تبحث في

رأس الحارة عن قادم.

قبل شتاءات وأصيف كثيرة -لا أدري كم- كانت الحارة تمتلئ بهم، فيدوون ساكنيها بضجيجهم، ثم لا يدرون من أين تأتيهم اللعنات... وحين يطاردهم أحد ما، يتبعثرون كحبات سبحة رجل عجوز قُطِعَ خيطُها فجأة... يتلاشون مع صدى أصواتهم المتلاشية.

- هل رأيت القمر؟

وأحسست ببرودة السؤال، مثل هذي الليلة الباردة، التي لم تأت منذ شتاءات وأصيف بعيدة، كبرودة أول ليلة وقفتُ فيها أسأل جواباً عن القمر... يوم تلمس قلبي طريقه إلى العتمة، في مساء الخامس من كانون حيث لا يخرج إلى برد الصقيع المعسكر مع العسكر أحد، خرجت أنا، أحمد الياسين، أبحث عن آخر ما تبقى من أولادي، عن آخر قمر لي.

آه أيتها المدينة..

يا مدينة لا تشبه في الموت إلا بيروت.

تجيء إليك فيالق العسكر، تندلق على شوارعك ترتل سور الحصار، وتقيم الأسوار حولك، دبابات، ومدافع وجنود، ونجوم، والنجوم التي أغفت على الأكتاف منذ زمن صَحَّتِ الآن تزيل عنها غبار الهزائم... والصدأ.
آه أيتها المدينة..

هذا نحن نغلف هزائمنا بالمسافات إلى قرطبة، ونغني فتمتطينا الهزائم، نغني من على المنابر معلنين بلا استحياء أن "لكل جواد كبوة" قل كبوات... هذي هي الحياة الموات.

هذا هو الزمن الموات..

لماذا يا الخامس من كانون بارداً ذلك الشتاء جيئت؟ أما كنت تستطيع إيقاف الشمس عن مغيبها، كي لا تأفل، ويحتضر السؤال في احتضار المساء...؟

- هل رأيت القمر؟

نعم... وقالوا:

- تكسّر على الباب، وتشظّي الجسد الناحل حين اخترقته القذائف، كان أوصل إليهم شياً، وعاد والخوف يختلج فيه، وعندما استدار وأصبح ظهره لهم... غربلوه... أو... أو غيّبوه.

... ووصلت حيث أشاروا... حيث تكسّر على الباب وتشطّى... لم أجد منه شيئاً...
فلجسده الناحل عظام تفتتها النسومات فكيف القذائف والرصاص...؟
لم أجد منه شيئاً...سوى بركة من دم، تتفرق حيث سقط... لم تجف... حدقت فيها...
دمها قاني، ورائحته تخترقني، ولا أدري أين تستقر، في الشرايين، أم في القلب؟
ياه يا ولدي...

قبل لحظات كنت أمضي مسرعاً لألقاك، ولم لا ألقاك... فأنت ما تبقى...
الآخرون قد ذهبوا... لذا مضيت مسرعاً حين انفلتنا من طوق شكّله الجنود، وهم
يسوقوننا إلى الملعب البلدي، كنا مئة... مئتين... لا... كنا أكثر من ذلك... مئات...
المهم أنا كنا كثر نساق إلى هناك... وكان لابد لنا من المرور عبر سوق الجزائرين،
حيث أغلق الجزائريون دكاكينهم، لكنّ الذبح ما زال مستمراً... الدم يسيل... يشكل بركة
كبيرة.. بركاً... بحراً من الدم...

حين أصبحنا في بوابة السوق... رأينا الجثث قد تكوّمت على أرضه... ومن
بعيد سمعنا صرخات... صرخات...

كانت صرخات رجل توسّط السوق، الجثث، اقتربنا قليلاً، وما زال هو يتوسط
الجثث، ينحني بين الفينة والفينة.

- لا بد أنه يبحث عن قريب له بين الجثث.

قلت في نفسي، وربما قال الكثير ممن معي في أنفسهم ما قلت... أردفت:

- عسى يلقاه حياً، أو... أو ميتاً، المهم أن يجد له أثراً.

كان لزاماً علينا أن نمرّ والجنود الذين يسوقوننا، عبر سوق الجزائرين إلى الملعب
البلدي، اقتربنا، موجة هائلة من البشر الذاهبة للذبح أو للغياب، تجتاح سوق الجزائرين
المغلقة دكاكينهم. الرجل يصيح، يعوي، اقتربنا منه، دار حول نفسه دورات قليلة، ثم
انحنى يقطع الجثث التي تحته بضربات من "بلطة" حادة.

توقفت الموجة الهائجة بمكانها، في بوابة السوق، لم نتحرك قيد أنملة، نحن مئات بلا
سلاح، نقف في بوابة السوق، بمواجهته... ما عرفنا، أهى أسنان تلك التي برزت من
فمه حين فتحه، أم حراب؟

حدّق بنا للحظات، ونحن المئات بلا سلاح انغرنا في أماكننا، والجنود الذين
يسوقوننا، يعلّقون أسلحتهم على أكتافهم، وينظرون إليه دهشين، بل خائفين. قال أحدهم
للآخر:

- أليس هذا...؟
- أجل... هيا... وإلاّ سنموت.
- هيا..

وصرخ الجنود بنا حين عوى الرجل، وركض نحونا والبلطة بيده تقطر دماً... ها قد عرفه الجنود ... كان منهم، يرتدي مثلهم، لكنّ سلاحه يختلف..

- هيا.. اهربوا... ستموتون... سنموت...

- هيا...

أدركنا ظهرنا للرجل، وانخرطنا والجنود في الركض، تلاحقنا صرخاته وقطرات الدم السائلة من بلطته، فانفرط الطوق الذي شكلوه حولنا، حين كانوا يسوقوننا قبل لحظات إلى الملعب، الزنزانة، المذبح... ومضيت إليك مسرعاً لألقاك... فما وجدتك، ما وجدت منك شيئاً.. أهكذا تغيّب.. لتغرقني العتمة...؟

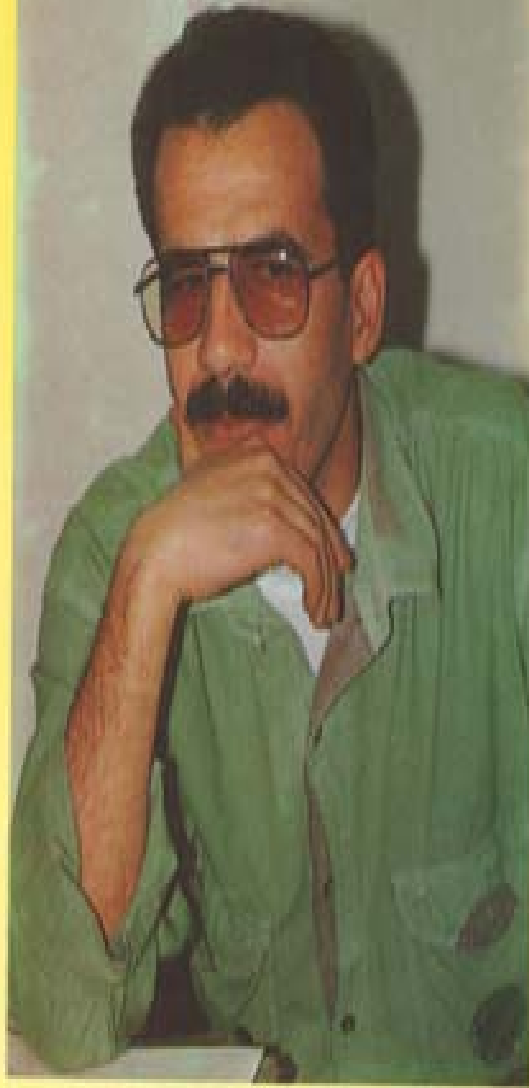
أيتها المدينة... أين قمري؟

يا الله... أين قمري؟

أيها السادة... أين قمري؟

ها أنا أسألكم الآن... لكن، ذات يوم حين أعلق متأرجحاً على مشانقكم، وأنتم تقفون أمامي، تنظرون عالياً، كي تروا وجهي أنا الفوق، وأنظر إليكم وأنتم التحت، فلا أرى إلاّ رؤوساً تتوسط أجساماً قد ضُغِطتْ لأني فوق وهي تحت، رؤوساً ملأى بطرق معدة لإعدامات جديدة. ساعتئذٍ ستكون قدمي بمستوى وجوهكم، ولن أتوانى عن ضربها بقدمي، وإن لم أستطع فعل ذلك، سوف أصعد بروحي إلى السماء وأنتظركم هناك عند الله حتى تجيؤوا، ولا بد من مجيئكم... عندها سترفع لكم البطاقات الحمراء للخروج من الجنة.

دمشق-1987



قيد الطبع

1. أحلام مخرج مبخرة قصص
2. الخلاق مسرحية

. مواليد 1961

. إجازة في الفنون المسرحية

قسم التمثيل

. دبلوم فلسفة ليكتور تصميم

داخلي.

. نشر العديد من القصص في

نوريات محلية وعربية.

. حاز على عدة جوائز في

مجال الفضة

. عضو نقابة الفنانين.

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية
Syrian Story